مسابقة الجامعة المصرية

لطلبة السنة التوجيهية

للدكتور زكي مبارك

— ٣ —

الإنجليز في بلادهم

كتب إليّ أحد الزملاء يقول إنه كان ينتظر أن أكتب كلمة أنقد بها الطريقة التي اختيرت بها كتب المسابقة ، وأجيب بأن هذا يعطل المشروع بعض التعطيل ، وهو مع ذلك لن يغيّر الواقع ، فلن تعدل الوزارة مشروع المسابقة في هذه السنة ، ولن تلتفت إلى انصراف فريق من الطلبة عن بعض تلك المؤلفات ، فلم يبق إلا أن نؤجل الكلام عن نقد طريقة الاختيار ، وأن نمضي في هذه الدراسات إلى آخر الشوط ، تحقيقاً للغرض الذي رمينا إليه وهو توجيه أولئك الطلاب

وحديث اليوم عن كتاب « الإنجليز في بلادهم » لمعالي الأستاذ حافظ عفيفي باشا ، فمن المؤلف ؟ وما غرضه من تحبير تلك الفصول الطوال ؟

نُشِر هذا الكتاب سنة ١٩٣٥ . أما مواده فقد جُمِعت بين سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٣٣ ، وكان هذا الرجل سفيراً لمصر في لندن ، فهدته فِطرته السليمة إلى التفكير في تعريف المصريين بالإنجليز ، « الإنجليز في بلادهم » لئلا يعترض معترض بما يضاف إلى الإنجليز خارجَ تلك البلاد ، وكذلك كان التوفيق حليف المؤلف حتى في العنوان

لا أجد ما أقوله في حافظ عفيفي بعد الذي قلته في كتاب (الأسمار والأحاديث) ولكن يجب النص على أن حافظ عفيفي من الشخصيات الدبلوماسية التي تتجه إليها الأنظار من حين إلى حين ، وكتابُه عن « الإنجليز في بلادهم » صورة من صور الدبلوماسية ، ولكن بمعناها الحق ، لا بمعناها المألوف ، فهو يريد أن نعرف الإنجليز في محاسنهم التي خلا وصفها من الترفق والتلطف ، وفي مساويهم التي سَلِم وصفها من التزيد والافتراء .

و « دبلوماسية » حافظ عفيفي طرازٌ جديد ، لأنها تقوم على أساس التعارف الصحيح ، وتنأى عن شوائب المصانعة والدهاء ؛ ولهذا الطراز من الدبلوماسية عيوب ، لأنه يموّق صاحبه في كثير من الأحايين ، ولكن المواقب الحميدة لن تكون إلا من نصيب الدبلوماسية القائمة على المصارحة فيما جلّ ودقّ من شؤون السياسة وشؤون الاقتصاد ، ومن هنا جاز أن تقع في كتاب حافظ عفيفي عبارات لا يقولها رجل كان سفيرنا في انجلترا بالأمس وقد يكون سفيرنا عندها في الغد ، كالذي وقع حين نص على « أن انجلترا لم تدخل ميدان الاستعمار لأغراض إنسانية كتمدين الشعوب المتأخرة ولا لفائدة المهاجرين الأوربيين بل سعياً وراء الربح من الاتجار في محاصيل المستعمرات والحصول على ما تحتاج إليه من المواد الأولية ، وإيجاد جولة لأسطولها التجاري وسوق لتصريف محصولاتها ومصنوعاتها » . وكالذي وقع منه حين أيّد هذا الحكم بالقوانين التي أصدرتها انجلترا ، القوانين القاضية باحتكارها للتجارة الخارجية للمستعمرات بالنسبة لأهم المحاصيل ، وتحريم تصدير الدخان والسكر والقطن الخام والأصباغ الطبيعية والنحاس ومواد بناء السفن على المستعمرات ، والقوانين القاضية بتحريم نقل ما يُصدَّر عن المستعمرات أو يرِد إليها على السفن الإنجليزية ، وبعض القوانين التي كانت تحرّم على المستعمرات إنشاء بعض الصناعات التي قد تنافس الصناعات الإنجليزية ، كصناعة الحديد مثلاً ؛ وبعض القوانين التي كانت تحرم على المستعمرات تصدير بعض المصنوعات التي تزاحم المصنوعات الإنجليزية

فهذا كلام لا يقوله دبلوماسيٌّ « مصقول » ، وإنما يقوله دبلوماسي « صريح » والصراحة عيب جميل ، إن جازت مجاراة الزمن المقلوب في عدها من العيوب !

ما هو الغرض من هذا الكتاب ؟

حافظ عفيفي لم يبتكر هذا الفن من التأليف ، وإنما سار في طريق مسلوك عبّده الأوربيون من أجيال طوال ، فالأدب الفرنسي مثلاً فيه عشرات من المؤلفات الجياد لتعريف الفرنسيين بحيوات الإنجليز والألمان والطليان والروس ، وأهل مصر والشرق العربي يعرفون الكتاب الذي نقله فتحي زغلول عن الفرنسية منذ أكثر من ربع قرن عن « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » وهو كتاب له نظائر وأشباه قد تصل إلى المئات إذا راعينا النشرات الطويلة والقصيرة التي أريد بها تعريف

الفرنسيين بأم الشرق والغرب ... ومؤرخو الأدب الفرنسي لم يفتهم أن ينصوا على التطور الذى صار إليه أدبهم بعد ذيوع كتاب مدام دى ستال عن الألمان

حافظ عفيفى لم يبتكر من الوجهة العالمية ، وإنما ابتكر من الوجهة المصرية ، فهو أظهر سفير مصرى تعقب البلد الذى عاش فيه بالاستقراء والاستقصاء

ومن الواضح أن فى أدباء مصر رجالاً قدموا لبلادهم خدمات من هذا النوع ، ولكن السفير يملك ما لا يملك الأديب من نواصى الوثائق والأسانيد ، وله أفق يختلف بعض الاختلاف عن أفق الأديب ، والمسئولية التى يحسها السفير قد تجعله أدق من الأديب فى الحكم على خصائص الممالك والشعوب

فهل يكون حافظ عفيفى قدوة لسفرائنا فى أقطار الشرق والغرب ؟ وهل ننتظر أن تضاف إلى الأدب العربى ثروات من هـذا اللون الطريف ، فنعرف من كل سفير بعض ما عرفنا من حافظ عفيفى ؟

النظرة المصرية

إلى هنا عرف القارئ أن حافظ عفيفى يريد ضرب الأمثال ، فأين نجد النظرة المصرية فى كتاب هذا الباحث الحصيف ؟

فى كلام المؤلف عن الطبقات كلام ينفع أهل مصر ، وهو الكلام الذى ينص على الأزمة الزراعية فى بلاد الإنجليز . وفى كلامه عن الدستور البريطانى أحاديث تنفعنا أجزل النفع ، وهى الأحاديث التى تشهد بقوة « التماسُك الإنجليزى » وأريدُ بالتماسُك القدرة الذاتية على مقاومة أسباب الضعف والانحلال ، فللتقاليد الدستورية فى نظر جميع الساسة البريطانيين احترام القانون « يرعاها الجميع حتى تحلّ محلها حقوق أخرى تكون أوفى منها فى تأييد سلطة الأمة » ، وتلك التقاليد تتغير دائماً مع الزمن ، ولكنها تتغير فى سكينة وهدوء ... وسُلطة البرلمان تستند إلى شخصية النواب ثم إلى التقاليد السياسية والسوابق أكثر مما تستند إلى المسطور من القوانين ... والحركات الشعبية التى قامت فى بريطانيا إنما كانت ترمى فى أكثر الأحيان إلى رغبة الشعب فى التمتع بحقوق الانتخاب أكثر مما كانت ترمى إلى زيادة سلطة البرلمان ... ولم يحصل فى انجلترا أن يناط بفريق من المشرعين أو بهيئة نيابية منتخبة مهمة تحرير دستور شامل يُرغَم على قبوله حاكم مستبدّ ، ويكون فاصلاً بين عهد الاستبداد وعهد الحرية ... ومع أنه لا يوجد فى الدستور البريطانى نص يمنع الملك من حق الرفض لإمضاء أى قانون يقرّه البرلمان ولا يوافق عليه الملك ، فإنه لم يستعمل ملك بريطانى هذا الحق من عهد الملكة آن ... ومع أنه لا يوجد نص مكتوب فى أى قانون دستورى يحدّد مسئولية الوزارة أمام مجلس النواب ويرغمها على الاستقالة إذا لم تنل ثقته ، فمبدأ مسئولية الوزارة محترم كل الاحترام ... ومع أنه لا يوجد نص دستورى يمنع الملك من رياسة مجلس الوزراء فقد روعيت سابقة وقعت فى عهد جورج الأول وكان ألمانيًا يجهل الإنجليزية ، ولم تُرَ فائدة من رياسته لمجلس الوزراء

وهنا أرجو طلبة السنة التوجيهية أن يقرأوا ما كُتب فى هذا الكتاب عن « الدستور البريطانى » قراءة فهم ونقد واستقصاء ، لأن المجال يضيق عن تشريحه فى هذا الحديث ، والمهمّ هو ربط ما جاء فى هذا الفصل بما درسه الطلبة فى مرحلة الثقافة العامّة عن التربية الوطنية ، فإن فعلوا ـ وسيفعلون ـ كان من السهل أن يدركوا مرامى المؤلف فى هذه الشؤون

وأقول بصراحة إن المؤلف يهمه أن يبيّن قيمة الشخصية الإنجليزية من ناحية التماسك السياسى والاجتماعى ، فأحوال انجلترا تتغير من وضع إلى وضع ، ولكن فى هدوء وطمأنينة وثبات ، ولولا مَلَكة التماسك لاستحال على شعب كان أفراده لا يزيدون على ثلاثة ملايين أن يملك شرف الاستقلال فى آماد ترجع إلى عشرة قرون

وينبغى للطالب أن يقرن ما كُتب عن الدستور البريطانى بما كُتب عن الامبراطورية البريطانية . فأقدم مستعمرة ظفرت بحقوق الاستقلال الذاتى هى المستعمرة التى وُجد فيها سكان بريطانيون ، ومعنى ذلك أن الإنجليزى ينقل مبادئه فى الحرية إلى أى وطن ينتقل إليه ، كما ينقل معه عقيدته الدينية ... ومن فصول هـذا الكتاب نعرف أن الإنجليزى حين يغترب لا ينسى خصائصه الذاتية ، ونعرف أنه بطىء فى التطور إلى حد الجمود ، والبطء فى التطور هو ما أسميه التماسك ، لأن التطور السريع لا يخلو من ثورة على الشخصية الذاتية ، وما يقال عن « البُرود » الإنجليزى هو من ذلك ، فالإنجليزى بارد ، أى بطىء التحوّل ، وكذلك كان العرب سادة حين نعتوا بمثل هذا « البُرود » فكانوا فى رياض الأندلس « متطبّعين » بطباع

أرباب الشميح والقيصوم ، وكانت أخيلة الجزيرة العربية هي المثال في التشبيهات والاستعارات والكنايات ، حتى صح لبعض الغافلين أن يقول إن العرب لم يتطوروا في كثير أو قليل ، وإنهم ظلوا مشدودين إلى وطنهم الأصيل

وقد قلت مرة أو مرات « إن العرب كانوا إنجليز زمانهم » ومعنى ذلك أنهم كانوا أوفياء لخصائصهم الذاتية ، فكانوا يتكلمون كما كان يتكلم آباؤهم الأقدمون ، وكانوا ينقلون المصحف والمسجد إلى كل أرض ، كما ينقل الإنجليز الكنيسة والإنجيل إلى كل أرض . ولو كان التطور الشامل أداة من أدوات النفع لترك العرب قرآنهم في الأندلس ، وترك الإنجليز إنجيلهم في الهند ، فلم يبق إلا الاعتراف بأن التطور الشامل من صور الانحلال ، وإن كان في نظر الغافلين من صور التحرر والاستقلال !

من كتاب حافظ عفيفي نعرف أن الإنجليز تطوروا تطوراً ملحوظاً ، ومن كتابه نعرف أنهم ظلوا برغم ذلك التطور الملحوظ إنجليزاً أقحاحاً ، فما معنى ذلك ؟ معناه أن الرجل الأصيل يحفظ خصائصه الذاتية وإن قهرته الظروف على التنقل من حال إلى أحوال

ومن كتاب حافظ عفيفي نعرف أن الإنجليز يلوّحون دائماً بفكرة العدل — وما يهمني في هذا المقام تحقيق الغرض من هذا التلويح — وطواف الأذهان حول فكرة العدل له مدلول ، فهو يشهد بأن الإنجليز يهمهم دائماً أن تكون سمعتهم بمنجّى من الأقاويل والأراجيف ، فكل مشكلة خليقة بأن تُعقَد لها لجنة أو لجان ، وكل ثورة أهل بأن يُطلَب لها بالترفق والاستبقاء ، ومن هنا كان الإنجليز أساتذة الأمم في فن « الدعاية » وعنهم تعلم الطليان والألمان . وفن الدعاية يراد به « تحديد الموقف » وموقف انجلترا في دعواها هو دائماً موقف الصلح المظلوم ، وهي سياسة تدل على براعة أولئك الناس في التخلص من مواطن الشبهات . والسياسي الحق هو الذي يهتف في كل لحظة بأنه من الأبرياء ، براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وإن كان أعرف المخلوقات بمصدر العدوان على ذلك الشهيد !

فإن تظر طلبة السنة التوجيهية إلى كتاب حافظ عفيفي ، كما نظرت إليه ، عرفوا منه أشياء وأشياء ، ولم يفهم غرض المؤلف فيما طواه بفضل براعته الفائقة من دقائق الشؤون ، والسياسيون يطوون أغراضهم في بعض الأحيان !

أسلوب المؤلف

هو أسلوب علمي يخلو خلوًّا تاماً من التحسين والتجميل ، ويمتاز بالوضوح والجلاء ، وقد تقع فيه ألفاظ تحتاج إلى تعديل ، كأن يقول « الجمعية الإنجليزية » وهو يريد « المجتمع الإنجليزي » وقد يقع في تعابيره شيء من الغموض ، كأن يقول : « ولم يترتب على عدم وجود نصوص محدودة لسلطة مجلس النواب الإنجليزي تحديد في الواقع لسلطته » ، فهذه العبارة تحتاج إلى تأمل قليل ، ومن واجب الكاتب أن يجعل تعبيره أوضح من أن يحوج القارئ إلى تأمل ما يريد

والذي ينظر في كتاب حافظ عفيفي لا يشعر أنه أجنبي يكتب عن الإنجليز ، فتلك المؤلفات الأجنبية الموضوع بحيث يظن القارئ أنه ينظر في كتاب ألفه أحد أبناء تلك البلاد ، ومع ذلك نلمح في مواطن قليلة أن المؤلف استأمر المراجع ، كأن يذكر عدد الجرائد في انجلترا سنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٨٦ وسنة ١٩٠٩ ، وكان المنتظر أن يذكر عدد الجرائد في الوقت الذي ألف فيه الكتاب ، ولكنه فيما ترجّح وقف عند أحد المراجع التي نشرت من قبل ، ولم يشغل نفسه بتحديد ما جد في تطور الصحافة بعد ذلك الحين

توجيهات

ينقسم كتاب حافظ عفيفي إلى ستة أبواب ، وتنقسم الأبواب إلى فصول ، فضلاً عما فيه من مقدمات تشتمل على محصول نفيس. ولن يستطيع الطالب أن يقول إنه استفاد من مراجعة هذا الكتاب إلا إذا جمع لنفسه خلاصة وافية لما كتب المؤلف عن تاريخ الحياة الدستورية ، وما قاله عن السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية ، وما فصّل من الحديث عن الصحافة والأحزاب ، وحرية التجارة والحماية الجمركية ، وما شرح من أحوال الميزانية ونظام البنوك ، وما دوّن من أغراض التعليم وأنظمة الجامعات ، وما قيد من خصائص القضاء وأنواع المحاكم ومجالس التشريع ، وما تعرض له في سرد أطوار الأمبراطورية البريطانية

تلك ملامح هذا الكتاب ، أما جوهر المحصول فهو ثمين إلى أبعد الحدود ، وهو مع ذلك سهل المنال على الطالب الذي اجتاز مرحلة الثقافة العامة بوعي وإدراك

ولكن كيف يجمع الطالب لنفسه تلك الخلاصة الوافية ؟

لنفرض أنه شرع في الباب الخاص بتكوين الرأي العام فقرأ

الفصل الأول عن الصحافة الإنجليزية ، فماذا يقيِّد حين يقرأ هذا الفصل ؟

يقيِّد تطور الصحافة الإنجليزية من أول ظهورها إلى اليوم مع ملاحظة ما مرَّ بها من تطورات مذهبية واقتصادية ، ثم يقيد انتقالها من أيدى الأفراد إلى أيدى الشركات مع بيان السبب فى هـذا الانتقال ، ثم يقيد عدد تلك الشركات ، ثم يقف وقفة طويلة عند الكلام عن المنافسة بين الجرائد الشعبية وجرائد الآراء ثم يلتفت التفاتة خاصة إلى ما أصيبت به شركة الديلى هرالد ، ثم يتعقب ما ابتُليت به الصحافة الانجليزية من الانحطاط بسبب الانحدار إلى استغلال أهواء القراء ، ثم يقيد الأخطار التى تعرضت لها السياسة الانجليزية بسبب طغيان الجرائد الشعبية ، ثم يقيد ما صنع فضلاء الإنجليز فى تأمين جريدة « التيمس » وجريدة « الإيكونوميست » من جشع الجماعات التجارية ، ثم يقيد الصلة بين الحكومة والصحافة ومراكز الصحفيين فى تلك البلاد ، ثم يقيد ما مرَّ بالصحافة الإنجليزية من متاعب الجهاد فى سبيل الظفر بحرية الرأى ، ثم يقيد ما للصحافة فى انجلترا من أندية ومدارس « مع الفهم الصحيح لعناصر هـذا الفصل الدقيق »

ولنفرض أيضاً أنه قرأ الفصل الثانى عن الأحزاب الإنجليزية ، فماذا يقيد وهو يقرأ هذا الفصل ؟

من واجب الطالب أن يعرف الغرض الذى أنشئت من أجله الأحزاب فى بلاد الإنجليز ، وأن يعرف الفرق بين دعاية مصلحة الوطن ومنفعة الحزب ، وأن يدرك كيف صارت الأحزاب فى انجلترا من الضرورات ، وأن يقيد التاريخ الذى نشأ فيه النظام الحزبى بتلك البلاد

وهنا سؤال أو أسئلة :

ظهر فى فرنسا كتاب لمؤلف معروف ، فما اسم الكتاب ؟ وما اسم المؤلف ؟ وكيف اختصم الأحرار والمحافظون حول ذلك الكتاب ؟ ومن الباحث الذى اتخذ منه دعامة لنظرية الأحرار ؟ ومن الباحث الذى اتخذ منه دعامة لنظرية المحافظين ؟ وما جوهر الخلاف حول فكرة ذلك المؤلف ؟ وما السبب فى وصف المحافظين بالجمود ؟ وكيف حُرِموا الظفر بالحكم زمناً غير قليل ؟ ومن المفكر الذى انتشل المحافظين من ذلك الجمود ؟ وكيف ظهر حزب العمال ؟ وما هى الفلسفة التى أوجبت ظهور هذا الحزب ؟ ومن هو المفكر الذى خلق هذه النزعة ؟ ومن أتباعه فى بلاد الإنجليز ؟ وكيف كان حظ العمال حين واجهوا الجمهور الإنجليزى أول مرة ؟ وكيف تخوَّف بعض الكتَّاب من اتساع شقة الخلاف بين تلك الأحزاب ؟ وكيف نجت انجلترا من عُدوان الاشتراكية ؟ وما هى الأسباب التى قضت بأن يكون الاشتراكيون الإنجليز أقرب إلى المحافظة والاعتدال ؟ ومن أشهر الرجال فى حزب العمال وحزب الأحرار وحزب المحافظين ؟ ومن الرجل الذى خرج على حزبه فى إحدى ساعات الحرج فأصابه بضعضعة لم يسلم منها إلى اليوم ؟ وما مسلك الإنجليزى الشريف حين يختلف مع الحزب الذى ينتسب إليه ؟ وما أخلاق الإنجليز فى مساولاتهم الحزبية ؟

فإذا ألمَّ الطالب بهذه المشكلات كان من واجبه أن يدرك كيف يختلف الأحزاب حول السياسة الخارجية ، والسياسة الأمبراطورية ، والسياسة الاقتصادية والاجتماعية ، وأن يعرف كيف تتكون لجان الأحزاب ، وكيف تسيطر على الجمهور للظفر فى ميادين الانتخابات

كلمة ختامية

قرأت كتاب حافظ عفيفى فى ثلاث سهرات ، ولم أجد فى استيعابه أى عناء ، لأنه مفصَّل أجل تفصيل وبأوضح أسلوب ، ولكن يخيَّل إلىَّ أن الطلبة لن يدركوا مراميه فى مثل الوقت الذى راجعته فيه ، لأنى على أرجح الأقوال سبقتهم إلى الدنيا بأعوام قصار أو طوال ، وللتجارب تأثير فى إدراك أمثال هـذه الشؤون

فإلى أساتذة السنة التوجيهية أسوق الاقتراحات الآتية :

أولاً : يجب « إن أمكن » أن يحضروا مع تلاميذهم بعض جلسات مجلس النواب ومجلس الشيوخ ليمكنوهم من تصور الحياة الدستورية ، وإلا فمن واجبهم أن يقرأوا معهم بعض « المضابط » التى تسجلها « الوقائع المصرية »

ثانياً — من السهل جداً أن يحضروا مع تلاميذهم بعض جلسات المحاكم الأهلية والشرعية ليعطوهم فكرة واضحة عن نظام القضاء

ثالثاً — ليس من الصعب أن يزوروا مع تلاميذهم بعض البنوك ليروضوهم على تصور المعضلات الاقتصادية

رابعاً — من واجب المدرسين أن يُعلِّموا تلاميذهم على